الجامعة الإفريقية العقيد أحمد دراية ـ أدرار
بالمشاركة مع جامعة تيارت

الأستاذ إبراهيم بلبالي
أستاذ مساعد
جامعة أدرار

الملتقى الوطني (العلاقات الحضارية بين إقليم توات وحواضر المغرب الإسلامي)
14-15 أفريل2009
المحور الثاني: العلاقات الفكرية والمذهبية بين إقليم توات وحواضر المغرب الإسلامي

التأثير الثقافي الفكري لحاضرة تلمسان[1] على توات[2] في القرن9 هـ من خلال نوازل الونشريسي

نازلة يهود توات أنموذجا

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه ومن نهج نهجه إلى يوم الدين، وبعد

لقد شهدت منطقة توات روابط ثقافية فكرية بينها وبين حواضر المغرب الإسلامي عموما، وتلمسان على وجه الخصوص، ذلك أننا نجد من أول العلماء (المثقفين) الذي دخلوا توات وأثروا فيها تأثيرا بالغا، بل غيروا المجرى الثقافي الفكري فيها علماء تلمسانيي المنشأ والتكوين، من أمثال عائلة العصنوني والإمام المغيلي رحمهم الله.

وأقصد بـ" الثقافة الفكرية"، تلك الثقافة المنبثقة عن الوسائل الفكرية من علوم ومعارف، لنخرج منها ما يسمى الآن بالثقافة الفلكلورية، فلا أريد التعرض لها في هذا المقام.

ولقد سجل الونشريسي في موسوعته النوازلية " المعيار المعرب" جزءا من ذاك التأثير الثقافي لأولئك العلماء، في النوازل التي كانت لها علاقة بمنطقة توات وأهم هذه النوازل هي نازلة اليهود.

وتظهر أهمية دراسة هذه المرحلة الزمنية في أنها تعتبر ـ كما قلت ـ ليس فقط بداية التأثر الفكري بالحواضر الإسلامية الأخرى، بل هي بداية للصحوة الثقافية الفكرية عموما بالمنطقة، فلا تكاد المصادر التاريخية القديمة تدر علينا بشيء معتبر من أخبار الحالة الثقافية الفكرية في منطقة توات، عن ما قبل هذه المرحلة.

---

(1) ـ تلمسان بكسرتين وسكون الميم وسين مهملة، وبعضهم يقول تنمسان بالنون، أصلها مدينتان متجاورتان بينهما رمية حجر حاضرة من حواضر المغرب الإسلامي، اختطها الملثمون ملوك المغرب، فهي كالفسطاط[ياقوت الحموي: معجم البلدان 44/2]. وهي الآن مدينة مشهورة الآن وعاصمة ولاية تلمسان.

(2) ـ توات حاضرة من حواضر المغرب الإسلامي، ومنطقة صحراوية بيدفي الجنوب الجزائري، وهي الآن تضم ثلاث قطاعات قورارة وعاصمتها تيميمون، وتوات الوسطى وعاصمتها أدرار، وتيديكلت، وعاصمتها عين صالح [فرج وحمود فرج إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين ص:1].

كما تظهر أهمية الرجوع إلى كتاب المعيار للونشريسي، في أن الونشريسي هو تلمساني المنشأ والتكوين، كما أنه عاصر هذه المرحلة فقد توفي رحمه الله سنة 874 هـ ، ولا شك أن وصف أي مرحلة من معاصر لها، ليس كوصف من لم يعاصر، وقديما قيل:

فما راء كمن سمعا

وتعتبر كتب النوازل عموما، والمعيار خصوصا ثرية وحافلة برصد مختلف الجوانب التي تشكل حياة المجتمع الذي تلم به النازلة، وخاصة الحياة الثقافية، ذلك أن النظر في النوازل يبتغى من ورائه معرفة الحكم الشرعي لما تجدد من أحداث، فهي كتب فقهية أصلا، ولا شك أن التعليم الديني عموما والفقهي على وجه الخصوص كان هو أساس التكوين الثقافي في المجتمع الإسلامي.

أما الانطلاق في هذه الدراسة من نازلة "يهود توات" ذلك أن هذه النازلة تمس كثيرا ليس الجانب الاجتماعي فقط، بل الجانب الفكري أيضا، لأنها تؤرخ لأخطر نازلة ألمت بالمجتمع التواتي، فاليهود كانوا ولا يزالون حتى الآن، من أوليات مهامهم العمل على إبعاد الشعوب عموما، والمسلمين خصوصا عن ثقافتهم الأصيلة، بكل ما أوتوا من قوة.

فما هي أوجه التأثير الثقافي الفكري لحاضرة تلمسان على منطقة توات خلال القرن التاسع الهجري؟ وخصوصا تلك التي تثيرها ما يعرف في المعيار للونشريسي بنازلة اليهود؟

وقبل أن نلج في المعيار لاستخراج ذلك التأثير لعلماء وفقهاء تلمسان لا بد أن نصدر ذلك بإطلالة تاريخية على منطقة توات قبل المرحلة المدروسة "القرن التاسع هـ" ، ثم نأتي ـ في مبحث أول ـ على تلك المرحلة لنستكشف فيها أولئك الفقهاء (المثقفين) الذين كانت لهم اليد الفضلى في تشييد الصرح الثقافي الفكري التواتي، ومن بينهم أولئك الذين متنوا عرى الربط الثقافي الفكري بين تلمسان وتوات في ذلك الوقت. و في مبحث ثان نلج إلى المعيار ونحط الرحال عند تلك النازلة التي تعتبر من أهم نوازله في موضوعنا، إذ مست الحياة الفكرية في منطقة توات بشكل كبير، نرسم ملامحها أولا بتصويرها كمسألة تاريخية اجتماعية، وفكرية فقهية، ثم ندخل إلى السجال الذي دار حولها بين العلماء عموما، ونطلع من خلال ذلك على رأي الفقهاء التلمسانيين منهم على وجه الخصوص، ثم نختم ذلك بخاتمة نسجل فيها أهم النتائج التي نستنتجها من مراسلة علماء توات علماء تلمسان طالبين آرائهم في هذه النازلة. فنقول وبالله التوفيق وعليه التكلان.

مبحث تمهيدي: إطلالة تاريخية على منطقة توات قبل القرن التاسع الهجري

إن ما استطعت أن أتحصل عليه من مراجع كانت كلها تبدأ الحياة الثقافية الفكرية لمنطقة توات من القرن التاسع الهجري أو قبله بقليل، غير أن الحوادث التي وقعت في القرون السابع والثامن وبداية التاسع تكشف لنا عن الانحطاط الثقافي الذي امتاز به الإقليم آنذاك، فيذكر الشيخ باي بعالم[3] في محاضرة له بعنوان " التعريف ببعض الجوانب من منطقة توات

---

[3] – هو السيد محمد بن عبد القادر بلعالم المشهور بالشيخ باي، ولد سنة 1930م بحي ساهل بلدية أقبلي دائرة أولف، تلقى علومه الأولية في بلده على يد أبيه، وشيخه محمد عبد الرحمن بلعالم، ثم انتقل إلى مدرسة الشيخ مولاي أحمد الطاهري بمدينة سالي، و بعد إجازته من شيخه انتقل إلى مدينة أولف وافتتح بها مدرسته القائمة حتى الآن، له مؤلفات عديدة في العلوم الشرعية، واللغوية والتاريخية، أطال الله عمره آمين[د/قدي عبد المجيد صفحلت مشرقة من تاريخ أولف العريقة ص 104، 105 بتصرف].

الجزائرية وحاضرتها" يذكر أن إقليم توات قد شهد نزاعات وغارات من بعض قبائله على بعضها الآخر، ففي القرن السابع الهجري (13م) هجم أهل أقبور على تمنطيط، وألحقوا بهم أضرارا بالغة، كما هجم في القرن الثامن الهجري (14م) أولاد الطالب على تاورير وقصر عيسى والشارف وتيط[4]. وغيرها من النزاعات والغارات التي لم تسجلها كتب التاريخ، أو سجلتها ولم نطلع عليها.

ومن أهم دلالات هذه الصراعات ضعف الوازع الديني الذي يمكن أن نطلق عليه الآن ضعف الثقافة ذلك أن الدين أي التعاليم الإسلامية كانت تنحصر فيها موارد الثقافة.

كما يمكن أن يستخلص الحال الثقافي الفكري المتردي لمنطقة توات في ما قبل القرن التاسع، من أهم سببين دعيا إلى ارتحال بعض العلماء من بلدانهم قاصدين منطقة توات، هذان السببان هما:

1- تخليص المنطقة المسلمة من سيطرة اليهود عليها من الناحية الاقتصادية والتجارية، ولا شك أن السيطرة على الاقتصاد تستتبعها السيطرة الثقافية، وفق النظرية المعروفة في علم الاجتماع " المغلوب مولع بتقليد الغالب".

2- الرغبة في تعليم أبناء هذه المنطقة، وهذا يدل على ما كان قائما في أذهان العلماء، أنه من الواجب عليهم إبلاغ التعاليم الإسلامية (الثقافة) إلى كل أبناء المسلمين حيثما كانوا، مما يؤكد ما نريد الوصول إليه من أنه كانت هناك علاقات ثقافية قوية بين سائر حواضر العالم الإسلامي عموما وحواضر الإقليم المغربي خصوصا.

يذكر الأستاذ مبروك مقدم[5] في كتابه "الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي وأثره الإصلاحي بإمارات وممالك إفريقيا الغربية: ولما كانت قصور توات تعيش الفوضى العارمة من كل النواحي، كان على الشيخ سيدي عبد الرحمن الثعالبي[6] بنظره الثاقب وتطلعه المشرئب لمستقبل زاهر لسكان الصحراء وإفريقيا الغربية أن يأمر تلميذه وصهره الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي بالارتحال لتوات، للقضاء على العوائق التي تحول دون بلوغ هذا الهدف، ومن أهم تلك العوائق:

1- مضايقات ومعاملات اليهود الربوية .

2- لإعادة هيكلة العلاقات الاجتماعية، والاقتصادية والسياسية والتجارية على أسس متينة ووفق مقتضى الشريعة الإسلامية.

---

[4] – محمد باي بلعالم: التعريف ببعض الجوانب من منطقة توات، محاضرة ألقيت بمناسبة المهرجان الثقافي الأول للتعريف بالمنطقة، طبعت أعمال المهرجان من طرف المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية الجزائر 1988، ص45.

[5] – مبروك مقدم باحث وكاتب جزائري ولد بأدرار 1949م تلقى علومه الأولية بمدارس مسقط رأسه، والباكالوريا من معهد ابن باديس بقسنطينة، والليسانس في علم الاجتماع من جامعة وهران، تقلد عدة مناصب إدارية، منها رئس دائرة بكل من أولف ولاية أدرار ودائرة وادي سوف، وبولاية النعامة لع عدة مؤلفات تاريخية واجتماعية[من غلاف كتابه الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي] .

[6] – عبد الرحمان بن محمد بن مخلوف الثعالبي (وبه يعرف) الجزائري ، كان على قدر واسع من العلم والصلاح والتقوى، له عدة مؤلفات منها الجواهر الحسان في تفسير القرآن، وروضة الأنوار، وغيرهما توفي سنة 845هـ [كفاية المحتاج189، شجرة النور الزكية 257 ورقم لترجمة 933.

3ـ لإعادة تصحيح بعض الآراء خاصة تلك التي بثت في المجتمع على أنها من الدين بالضرورة[7].

والآن وبعد أن رسمت هذه الصورة القاتمة لمنطقة توات قبل القرن التاسع الهجري تعالوا بنا الآن لنرى أهم الأعلام الذي غيروا المسار الثقافي في هذه المنطقة خلال القرن التاسع الهجري، ومن خلال ذلك نقف على إسهامات علماء تلمسان في هذا التغيير الثقافي لمنطقة توات.

المبحث الأول: العلماء المجددون للثقافة التواتية خلال القرن التاسع الهجري

لا نقصد هنا التعرض إلى كل العلماء الذين شاركوا في تثقيف منطقة توات خلال القرن التاسع الهجري، لأن ذلك سيطيل بنا الطريق في هذه المداخلة، ولكن سأقصر الحديث عن أربعة أعلام ارتحلوا إلى عاصمة منطقة توات "تمنطيط" فباشروا فيها ـ عن قرب ـ تغيير الواقع الثقافي ، وهؤلاء الأعلام هم:

1ـ سيدي أبو يحيى محمد المنياري

2ـ سيدي يحيى بن يدير

3ـ سيدي عبد الله العصنوني

4ـ سيدي محمد بن عبد الكريم المغيلي

أما العلمان الأولان فلا أطيل عندهما المقام لأن المعلومات المتداولة عنهما شحيحة ، لكن أوردتهما لأسبقيتهما في الحلول بمنطقة توات، لذلك سأجمل الحديث عنهما في مطلب أول، وأما الأخيران فسأبسط القول عنهما حسبما يسمح به المقام، وأخصص لكل منهما مطلبا، ذلك أنهما يندرجان أساسا في صلب موضوع حديثي، إذ أنهما تلمسانيا النشأة والتكوين، فهما يمثلان أول بوادر التأثير الثقافي الفكري لتلمسان على منطقة توات.

المطلب الأول: محمد المنياري ويحيى بن يدير

الفرع الأول: محمد المنياري: هو العلامة أبو يحيى محمد المنياري[8]، وفي القول البسيط لمحمد بن بابا حيدة[9] "أبو يحيى بن محمد المنياري[10]"، ولنترك المجال لأحد حفدة الشيخ

---

(7) ـ مبروك مقدم: الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي وأثره الإصلاحي بإمارات وممالك إفريقيا الغربية، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران ـ الجزائر طبعة 2002 اج1 ص 17-18.

(8) ـ الصديق حاج أحمد: التاريخ الثقافي لإقليم توات من القرن 11ه إلى القرن 14هـ طبعة مديرية الثقافة لولاية أدرار، ط1، ص52.

(9) ـ محمد بن بابا حيدة: هو الشيخ الفقيه محمد الطيب بن الحاج عبد الرحيم المشهور بابن بابا حيدة، من فقهاء توات في القرن التاسع عشر الميلادي، ينظر في ترجمته: فرج محمود فرج تحقيقه لكتاب البسيط للمترجم له ص 6 من التحقيق.

(10) ـ محمد بابا حيدة: البسيط في أخبار تمنطيط، تحقيق: الدكتور فرج محمود فرج، موجود ضمن كتابه الذي نال به شهادة الدكتوراه من جامعة الجزائر 1977 ص 30 من التحقيق.

المترجم له وهو محمد بن بابا حيدة يصف لنا جده وتاريخه في منطقة توات فيقول[11]: (فصل في ذكر علماء البلد، وأعني الأكابر والأولياء المشاهير، وأولهم على ما بلغنا ذكره جدنا سيدي أبو يحيى بن محمد المنيار ، وأرى المنيار نسبة لبني منيار قبيلة من المغرب معروفة بأرض التلول، تخبر عنها أحميان، وجدنا هذا نزل تمنطيط عام خمسة عشر وثمانمائة، في القرن التاسع بعد الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، وتقضى بها على توات كلها، وكانت مؤونته عليهم فيما يحكى خمسمائة مثقال لكل سنة، ويحكى عنه العدل والصلاح) [12].

وواضح من خلال الترجمة السابقة لهذا العلم أنه كان على قدر كبير من العلم والفضل والصلاح والشهرة، وأنه تولى قضاء الجماعة التواتية كلها، وهو منصب لا يتولاه إلا ذو رياسة في العلم باعتراف من يعاصره، وقد سار في ذلك على قدر عظيم من العدل والصلاح، وتتضح مكانته كذلك في جانب القضاء، من الأجر الوافر آنذاك الذي كان يمون به على توليه القضاء. ولا شك أن من كان كذلك ستكون له بصمات واضحة في المشهد الثقافي وإن لم ينقلها المؤرخون.

الفرع الثاني: يحيى بن يدير التادلسي

هو يحيى بن يدير، وفي كفاية المحتاج (يحيى بن بدير بن عتيق التدلسي أبو زكريا)، [13] **قدم على توات سنة خمسة وأربعين من القرن التاسع[14]، كان فقيها علامة من تلامذته الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي، والشيخ عبد الله العصنوني، وابن أخيه سالم العصنوني، وتوفي بتوات يوم الجمعة عاشر صفر عام سبع وسبعين وثمانمائة[15].**

ومن كان هؤلاء الأعلام تلامذته فحري به أن يوصف بأنه على قدر كبير من العلم والفضل والصلاح، وأن له أثرا راسخا في المشهد الثقافي التواتي.

وإذا كان هذان العلمان ليسا من تلمسان، فإن لنا علمين آخرين في هذا القرن أصلهما وتكوينهما من تلمسان، وكانت لهم اليد الفضلى في إسراع تحريك عجلة الثقافة بمنطقة توات بعدما هاجرا إليها، وهما العصنوني والمغيلي.

المطلب الثاني: عبد الله العصنوني [16]

الفرع الأول: الحياة المادية للعصنوني

---

[11] ــ إنما قصرت نقل ترجمته على ما أورده عنه حفيده، لسببين أولهما: أن جل من ترجم له - إن لم نقل كلهم - رجعوا في ذلك إلى ما أورده عنه حفيده، وثانيهما لكي لا أطيل على السامع والقارئ لهذه الكلمة بكثرة إعادة وتكرار ما سبق به الأوائل .

[12] ــ محمد بن بابا حيدة: مصدر سابق، ص 30.

[13] ــ أحمد بابا التنبكتي: كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، دار بن حزم بيروت، ط1 1422هـ 2002م، ص509.

[14] ــ محمد بن بابا حيدة مصدر سابق، ص 31، ومحمد بن عبد الكريم درة الأقلام، ورقة 18-19.

[15] ــ الحمدي أحمد: محمد بن عبد الكريم المغيلي رائد الحركة الفكرية في توات، رسالة ماجستير، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، وهران، 1999-2000م ص67.

[16] ــ ينظر في ترجمته: محمد بابا حيدة مصدر سابق 20 ، 31، مخطوط درة الأقلام في أخبار المغرب بعد الإسلام لمؤلفه محمد بن عبد الكريم التمنطيطي ورقة رقم 18-19.

اسمه ونسبه: هو أبو محمد عبد الله بن أبي بكر العصنوني أو العصموني، التلمساني. يقول صاحب " البسيط " (رأيت في بعض التقاييد أن عصنون الذي ينتسبون إليه هو أخو جدهم فانتسبوا إليه لشهرته، وذلك جائز عند العرب) [17].

مولده ونشأته: لم أفلح في العثور في المصادر التي بين يدي على شيء يذكر في هذا المقام، وهذا موجود في كثير من تراجم المشاهير، لأن المرء لا يفتقد إلا بعد شهرته.

تاريخ حلوله بمنطقة توات: تشير المصادر إلى أن حلول هذا العلم بمنطقة توات كان سنة اثنين، أو ثلاث وستين وثمانمائة، لكن هذا التردد قد رأيت زميلنا الأستاذ "عبد الرحمن بعثمان" يحققه بأن الشيخ العصنوني نزل أولا بقصر بني تامرت سنة 862، ثم ارتحل منها إلى مدينة تمنطيط عاصمة الإقليم التواتي آنذاك، سنة 863.

وفاته: أما عن تاريخ وفاته فلم أفلح أيضا في العثور عليه، غير أن صاحب البسيط يشير إلى أنه كان حيا عند تولي القضاء من ابن أخيه، وكان ذلك سنة أربعة عشر وتسعمائة 914هـ ، يعني في الخمس الأول من القرن العاشر. وقبره الآن معروف في تمنطيط.

الفرع الثاني: الحياة العلمية (الثقافية) للعصنوني

شيوخه: لا تذكر المصادر التي اطلعت عليها إلا شيخا واحدا للعصنوني وهو سيدي يحيى بن يدير الذي تقدمت ترجمته، وقد تولى القضاء بتوات، ولا يتولى القضاء إلا واسع الاطلاع والمعرفة.

ومما سجلته لنا كتب الفقه والتاريخ عن الحركية الثقافية التي قادها العصنوني عبد الله، أنه هو الذي ترأس أحد أطراف السجال الفقهي الثقافي فيما يعرف في المعيار بنازلة اليهود، ضد الطرف الثاني الذي قاده الشيخ بن عبد الكريم المغيلي رحمهم الله أجمعين [18].

المطلب الثالث: محمد بن عبد الكريم المغيلي[19]

الفرع الأول: الحياة المادية للمغيلي

اسمه ونسبه: أبو عبد الله، محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي التلمساني، والمغيلي : بفتح الميم نسبة إلى مغيلة قبيلة من البربر استوطنت تلمسان ووهران والمغرب الأقصى، وهي فرع من قبيلة صنهاجة كبرى شعوب الأفارقة البيض.

مولده و نشأته: ولد في مدينة تلمسان سنة 790هـ /1425 م، من عائلة راقية النسب، مشهورة بالعلم والدين والشجاعة في الحروب، وهو العالم رقم عشرين في سلالة المغيليين، والده عبد الكريم اشتهر بالعلم والصلاح، كما أن أمه اشتهرت بأنها سيدة فاضلة، تحب الفقراء والمساكين وتنفق عليهم بسخاء، وقد قام هذان الوالدان بتربيته وتنشئته تنشئة حسنة.

---

[17] – محمد بابا حيدة: المصدر السابق، ص20.

[18] – سيأتي الحديث عن هذه النازلة في المبحث الثاني من هذه الدراسة. : .

[19] – ينظر في ترجمته: أحمد بابا التنبكتي: كفاية المحتاج مرجع سابق، ص455 رقم الترجمة (274)، ومن المعاصرين مبروك مقدم: الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي وأثره الإصلاحي بإمارات وممالك إفرقيا الغربية .

وفاته: توفي رحمه الله بتوات سنة 909هـ وقبره الآن معروف ببلد سمي بزاوية الشيخ بن عبد الكريم المغيلي ملاصق لقصر بوعلي.

الفرع الثاني: الحياة العلمية (الثقافية) للإمام المغيلي

طلبه العلم و شيوخه: حفظ القرآن الكريم على يد والده، وعنه أخذ مبادئ العربية من نحو و صرف و بيان وقرأ عليه أيضا موطأ الإمام مالك و كتاب ابن الحاجب.

كما تلقى العلم عن علماء و شيوخ تلمسان منهم : محمد بن أحمد بن عيسى المغيلي الشهير بالجلاب التلمساني (ت سنة 875 هـ) و عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن علي بن يحيى الحسني أبو يحيى التلمساني (826 و قيل 825 هـ)، ومحمد بن إبراهيم بن يحي م أبو الفضل التلمساني (ت 845 هـ).

انتقل بعدها إلى بجاية حيث أخذ التفسير و الحديث الشريف ، والفقه عن علمائها، من أمثال: الشيخ أحمد بن إبراهيم البجائي (ت سنة 840هـ/1434م)، ومنصور بن علي أبو علي الزواوي المنجلاتي.

ثم انتقل إلى الجزائر أين اتصل بالمفسر المشهور - عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف بن طلحة الثعالبي صاحب (الجواهر الحسان)، و لازمه ملازمة لصيقة، و قد أعجب الإمام الثعالبي بالطالب المغيلي وبفطنته وذكائه، فلقنه الطريقة القادرية، وزوجه ابنته اعترافا منه بعلمه وفقهه وأدبه.

وبأمر من شيخه الثعالبي انتقل إلى توات، ونزل بـ "أولا سعيد" بقوراره (تيكورارين سابقا) وهناك توفيت زوجته[20]، وبعدها انتقل إلى تمنطيط وفيها أخذ عن عالمها يحيى بن يدير بن عتيق، أبو زكريا التدلسي، القاضي.

ثم بدأ ترحاله في ممالك إفريقيا ينشر الإسلام ويدعو إلى الله ويجاهد في سبيله، حتى بلغه نبأ قتل اليهود ابنه عبد الجبار فعاد لتوات، مجاهدا في اليهود حتى أجلاهم عنها.

مؤلفاته و آثاره: ترك الإمام المغيلي عدة مؤلفات في الفقه والتفسير والحديث والمنطق، وأكثر مؤلفاته كان في السياسة الشرعية، و منها: "تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلاطين " و " ما يجوز للحكام في ردع الناس عن الحرام " و "البدر المنير في علوم التفسير". وغيرها.

المبحث الثاني: نازلة يهود توات وتأثيراتها الثقافية

المطلب الأول التعريف بالنازلة

النوازل هي تلك المسائل المتجددة التي توجب على الفقهاء النظر فيها، والبحث عن الحكم الشرعي لها.

الفرع الأول: تصوير النازلة.

---

[20] – مبروك مقدم مرجع سابق: ص115.

تتصور هذه النازلة في أن اليهود الذين قدموا إلى منطقة توات[21] قوي نفوذهم حتى سيطروا فيها على الحياة الاقتصادية، وأقاموا كنائس لهم يتعبدون فيها، وخالفوا الكثير من التعاليم التي تفرض عليهم بحكم أنهم ذميين، فرأى الإمام الشيخ المغيلي أن ذلك خروجا منهم على عقد الذمة، مما يستوجب ملاحقتهم بهدم كنائسهم، حيث أن المعابد تعتبر أهم الرموز السيادية في المجتمعات الدينية.

وخالفه القاضي عبد الله العصنوني، ورأى أنه لا يجوز التعرض لتلك المعابد، لأن التعرض لها هو الذي يعتبر خروجا من جهة المسلمين عن عقد الذمة.

فكتب العصنوني، والمغيلي إلى علماء فاس وتلمسان يطلبان رأيهم في المسألة توخيا للإجماع، فوافق البعض العصنوني، ووافق البعض الآخر الإمام المغيلي، نظرا لأن المسألة مبنية على مسائل هي كذلك خلافية.

الفرع الثاني: المسائل الخلافية التي بنيت عليها المسألة

أول هذه المسائل: هو حكم إحداث الكنائس في الأراضي التي اختطها المسلمون، هل يجوز أم لا يجوز؟

ثانيا: على القولين السابقين ما الحكم إذا أقدم الذميون على إنشاء كنائس هل يجوز نقضها أم لا يجوز؟ وهل الحكم على الإطلاق أم بتفصيل وشروط؟

ثالثا: هل ما أقدم عليه اليهود في توات من سيطرتهم على النواحي الاقتصادية، وترك الكثير من الأمور التي يجب أن يمتازوا بها عن المسلمين في لباسهم وسلوكهم، يعتبر نقضا منهم لعقد الذمة مما يبيح نقضه من الطرف الآخر أم لا يسوغ ذلك إلا زجرهم وحملهم على الالتزام بالعقد؟

هذه المسائل الثلاثة خلافية، تبنى عليها المسألة الخلافية بين العصنوني والفريق المؤيد له، وبين المغيلي وفريقه.

المطلب الثاني: الفقهاء الذين أطروا المسألة عموما والتلمسانيين منهم خصوصا.

لا أريد في هذا المقام أن أترجم لكل أولئك الأعلام الذي شاركوا في تأطير هذه النازلة، نظرا لأن المقام لا يسمح بذلك، وإنما سأذكر تراجم للتلمسانين منهم في الفرع الثاني، وأما في الفرع الأول فأعدد فيه فقط كل أولئك الفقهاء.

الفرع الأول: جملة الفقهاء الذين أطروا المسألة نقلا من المعيار[22]

---

[21] – يذكر : زميلنا الصديق حاج أحمد في كتابه (التاريخ الثقافي لإقليم توات أحمد مرجع سابق، ص38-39) نقلا عن يعقوب أوليل في كتابه "يهود الصحراء" أن إقليم توات عرف ثلاث هجرات يهودية مبكرة، في القرن الثاني الميلادي انطلاقا من السرانيك بليبيا، وفي القرن السادس والسابع انطلاقا من الموصل وخيبر، والثالثة من الأندلس في القرن السابع .

[22] – انظر: الونشريسي أبو العباس أحمد بن يحيى: المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، تحقيق جماعة بإشراف: د محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، دون رقم وتاريخ الطبع،2/ 214-261 .

وهم على التوالي: ـ أبو محمد عبد الله بن أبي بكر العصنوني التلمساني ثم التواتي،ـ وأبو عبد الله، محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي التلمساني، ثم التواتي، ـ وأبو العباس أحمد بن محمد بن زكري التلمساني، ـ وأبو مهدي عيسى بن أحمد الماواسي الفاسي، أبو عبد الله محمد بن قاسم الأنصاري المعروف بالرصاع التونسي(ت894هـ) ، وأبو زكريا يحيى بن عبد الله بن أبي البركات الغماري التلمساني (ت 910هـ)، عبد الرحمن بن سعيد[23]، وأبو العباس أحمد بن يحيى بن محمد، الونشريسي، التلمساني, وأبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الجليل التنسي التلمساني، وأبو عبد الله محمد بن يوسف بن عمر السنوسي التلمساني.

الفرع الثاني: تراجم للعلماء التلمسانيين الذين شاركوا في تأطير هذه النازلة وآراؤهم فيها

أولا: تراجم العلماء التلمسانيين الذين شاركو في تأطير النازلة

2-1 وقد تقدمت ترجمة كل من العصنوني والمغبيلي، فلا أطيل الكلام بتكرارهما.

3- ابن زكري: هو أبو العباس أحمد بن محمد بن زكري التلمساني، عالم تلمسان ومفتيها، فقيه أصولي، شاعر، نظار ، أخذ عن أئمة منهم ابن مرزوق الحفيد وقاسم العقباني وابن زاغو وغيرهم، وعنه أئمة منهم أحمد بن أطاع الله والشيخ زروق وابن مرزوق حفيد الحفيد، ألف كتابا في مسائل القضاء وغيره، وله فتاوى في المعيار[24].

4- أبو زكريا بن أبي البركات: يحيى بن عبد الله بن أبي البركات أبو زكرياء التلمساني الفقيه قاضي الجماعة[25].

5- الونشريسي: أبو العباس أحمد بن يحيى بن محمد، الونشريسي، التلمساني, فقيه مالكي, أخذ عن علماء تلمسان؛ كأبي الفضل العقباني، ، فر إلى فاس سنة 874هـ بعد ن نقمت عليه حكومة تلمسان, ومات فيها, من كتبه: إيضاح المسالك, والمعيار المعرب, وغيرهما[26].

6- التنسي: أبو عبد الله محمد بن عبد الجليل التنسي التلمساني، يعرف بالتنسي، أعلم علماء تلمسان في عصره، أخذ عن الأئمة كابن مرزوق وقاسم العقباني وغيرهما، وعنه أخذ ابن سعد والخطيب وابن مرزوق وغيرهم، له نظم يسمى الدرر العقيان في دولة آل بني زيان، توفي سنة899هـ[27].

7- السنوسي: أبو عبد الله محمد بن يوسف بن عمر السنوسي التلمساني، يعرف بالسنوسي ، كان آية في العلم والصلاح والهدى والزهد والورع، له حظ وافر في العلوم وفروعها وأصولها، أخذ عن والده ونصر الزواوي والولي الكبير الحسن أبركان، وعنه أخذ جماعة كابن صعد وبلقاسم الزواوي وغيرهما، ألف كثيرا منها شرحه الكبير المسمى المستوفي على الحوفي[28].

---

(23) ــ لم أفلح في العثور على تتمة لاسم هذا العلم ولا عن ترجمة له.

(24) ــ انظر: ترجمته في شجرة النور الزكية ص 267 رقم الترجمة 987، ونيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا التنبكتي 84، وكفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج للتنبكتي ص70.

(25) ــ انظر ترجمته في كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج للتنبكتي ص 510.

(26) ــ ينظر في ترجمته: شجرة النور الزكية لمحمد بن مخلوف,274/1، تعريف الخلف برجال السلف للحفناوي, 62/1.

(27) ــ تنظر ترجمته في: كفاية المحتاج ص 446، وشجرة النور الزكية ص277 .

(28) ــ تنظر ترجمته في: كفاية المحتاج ص 445، وشجرة النور الزكية ص266 .

ثانيا: آراؤهم في هذه النازلة[29]:

ذهب العصنوني وابن زكري وأبو زكريا بن أبي البركات إلى عدم جواز نقض كنائس يهود توات لأن في نقضها مخالفة لعقد الذمة الذي أعطوه، ومخالفته لا تجوز شرعا، وقالوا بأن أرض توات أرض اختطها المسلمون وسكن معهم اليهود وبنوا كنائسهم فيها وبقوا على ذلك مدة من الزمن، فلا يجوز التعرض لها، وأن ما فعله اليهود لا يستوجب نقض عقد الذمة وإنما يستوجب زجرهم فقط،

وذهب المغيلي والونشريسي والتنسي والسنوسي إلى وجوب هدم كنائس اليهود بأرض توات، لأنه لا يجوز لهم بناؤها أصلا في الأرض التي اختطها المسلمون، وأن اليهود بأرض توات تجبروا وطغوا وخالفوا عقد الذمة مما يستوجب نقضه ومحاربتهم وإجلائهم.

المطلب الثالث: الوسائل التثقيفية التي استعملت في النازلة

الفرع الأول: الوسائل التثقيفية المادية

وأقصد بالوسائل التثقيفية المادية أولئك الرجال، وتلك المصنفات التي رجع إليها من طرف الفقهاء الذين أطروا تلك النازلة، فوافقوهم أو خالفوهم.

أما الرجال الذين استعملوا في هاته النازلة فقد أحصيت منهم ما يربو عن المائة، منهم الصحابة كأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ومنهم رواة الحديث كابن حبان وأبي داوود والترمذي، ومنهم المفسرون كالقرطبي، ومنهم الفقهاء والأصوليون وهم كثر.

واللافت للانتباه هنا هو أن بعض من شارك في تأطير المسألة لم يقتصر على المذهب المالكي، بل دعم رأيه بالمذاهب الخمسة فإضافة إلى المذهب المالكي نقل رأي المذهب الحنفي والشافعي والحنبلي والظاهري[30].

وأما المصادر التي وردت فيها فقد أحصيت منها ما يقرب من الأربعين أو يزيد، ليست الفقهية المالكية فحسب، بل تعدته إلى مختلف المصادر التفسيرية والحديثية والأصولية واللغوية، وفي الفقهية: نجد إضافة إلى المصادر المالكية، المصادر الحنفية والشافعية والحنبلية والظاهرية.

الفرع الثاني: الوسائل التثقيفية المعنوية

وأقصد بها تلك العلوم والفنون التي وظفت في النازلة، وهي:

أولا: الفقه : وهذا لا يحتاج إلى تدليل عليه لأن المسألة فقهية بالدرجة الأولى.

ثانيا: أصول الفقه: وقد وظفت منه أغلب الأدلة كالقرآن الكريم، فجاء في النازلة ما يقرب من خمس آيات، والحديث الشريف وآثار الصحابة والتابعين، وقد جاء فيها أزيد من خمسة عشر حديثا وأثرا، والإجماع، وقد وظف كثيرا، مع ملاحظة أن هذه المراسلة كان يتوخى من ورائها

---

[29] – تنظر هذه الآراء في الونشريسي: المعيار المعرب ، مصدر سابق 214-261.

[30] – ينظر : الونشريسي، مصدر سابق، 2/250-251.

الإجماع، وغيرها من الأدلة، كما وظف فيها مبحث العام ومخصصاته، ووظفت فيها بعض القواعد الأصولية، كقاعدة " وقوع واحد من شيئين فأكثر أقرب من وقوع واحد بعينه" وقاعدة" الشك في الشرط مانع من ترتب المشروط" [31]، وغيرها من المسائل والقواعد الأصولية.

ثالثا: المقاصد: وقد وظفها أبو زكريا يحيى ابن عبد الله الغماري التلمساني كثيرًا، حيث أنه بنى جل أدلته من المقارنة بين المصالح المتحققة من هدم تلك الكنائس، وبين المفاسد المتحققة من عدمها، وبالعكس[32]، وورد في مكان آخر توظيفا لترتيب الكليات الخمس[33].

رابعا: التفسير: وكان ذلك كثيرا عند الاستدلالات بالآيات التي تقدمت.

خامسا: المنطق: وقد وظفه ابن زكري في قوله: هدم كنائس الذميين ظلم، وظلم أهل الذمة لا يجوز شرعا، والنتيجة هدم كنائس اليهود لا يجوز شرعا) [34].

سادسا: اللغة: مثل النقل عن الجوهري المعنى اللغوي لكلمة الاختطاط، ومسألة جزم جواب الشرط[35].

خاتمة:

إن كل هاته الأدوات الثقافية التي استعملت في هاته النازلة من علماء من المذاهب الخمس، وكتب ، وفنون من فقه و أصول وقواعد ومقاصد ولغة ومنطق ألقت بظلالها الثقافية الفكرية على ربوع المنطقة التواتية، وأنتجت لنا نتاجا ثقافيا واسعا تمثل فيما بعد في الكم الهائل من الأعلام التواتيين الذين أثروا الحياة الثقافية الفكرية في المنطقة، وفيما تركوه بعدهم من رجال ومصنفات. وعليه فلا نبالغ إذا قلنا أن النوازل تشكل رابطا قويا من الروابط الثقافية الفكرية، وأن حاضرة تلمسان، كانت لها بصمة كبيرة في تكوين الثقافة الفكرية التواتية.

هذا ونسأل الله العلي القدير أن أكون قد وفقت لتنبيه الباحثين إلى ما تحمله النوازل، من كنوز معرفية وثقافية واسعة، ونطلب منه أن يوفقنا لما فيه الخير والصلاح، آمين والحمد لله رب العالمين .

---

(31) – الونشريسي: مصدر السابق 222/2 و232/2.
(32) – المصدر السابق: 222/2 و227 و229 -231.
(33) – المصدر السابق 223/2.
(34) – المصدر السابق 223/2.
(35) – الونشريسي: مصدر سابق 220/2 و244.